

دور الطرق الصوفية في مقاومة الإستعمار الفرنسي في غرب أفريقيا خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ، الشيخ الصوفي محمد بن سعيد الفوتي أنموذجاً

د . بشير رمضان التليسي
جامعة الفاتح

مقدمة

تبحث هذه الورقة دور الطرق الصوفية في مواجهة الاستعمار الفرنسي في غرب أفريقيا الذي يعتبر الشيخ عمر بن سعيد الفوتي أنموذجاً لهذه المواجهة للحيلولة ، دون نجاح حركة التنصير التي صاحبت الحملة الفرنسية ، ومواجهة الحملة العسكرية .

ولقد كان من الطبيعي جداً أن نشير إلى جذور ظاهرة التصوف في غرب أفريقيا، تلك الظاهرة التي تعتبر مفخرة للإسلام ، الذي استطاع بمبادئه الصوفية أن ينشر حضارة ومدنية في منطقة ، كان نصيبها من الحضارة ضئيلاً جداً ، وأن يقف حارساً لهذه الحضارة ، وقيمها الدينية والإنسانية حارسا يذود عنها كل من يحاول النيل منها .

وقد بدأت ظاهرة التصوف هذه في غرب أفريقيا منذ القرن الخامس عشر للميلاد مع المغيلي [(1)] والكنيتين هذه السرعة في انتشار ظاهرة التصوف يُرجعها البعض

(1) المغيلي : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وينتسب إلى قبيلة مغيلة التي تقطن نواحي تلمسان وقد كان من المثقفين وأولي الفكر في عصره، انظر ترجمته في(أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز

إلى نفسية الأفريقي النزاعة إلى التدين ، جعلت التصوف مقبولا لديه ، والذي يذهب به إلى عالم ما وراء الطبيعة (الميتا فيزيقي) والذي تدور في فلكه الديانة الأفريقية ، فضلا عن التقارب بين رجال الصوفية ، وبين الأفارقة اجتماعيا وحضاريا ، وهو ما سهل انتشار الطرق الصوفية في غرب أفريقيا .

وعلى صعيد آخر فإن الطرق الصوفية قد قدمت خدمات جليلة في غرب أفريقيا، وشاركت الناس حياتهم ، فأصبح لها مريدون وأتباع ، وبخاصة من بين زعماء القبائل والعشائر الذين كانوا يتمتعون بنفوذ روحي واجتماعي في مجتمعاتهم .

إن الحديث عن دور الطرق الصوفية في مواجهة الاستعمار الفرنسي في غرب أفريقيا موضوع له أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعقيدية (الدينية) . ومن ثم فإن دور الطرق الصوفية وبخاصة القادرية [(1)] ، والتيجانية [(2)] ومُريديها في هذه المنطقة كان دوراً فاعلاً في مقاومة الاستعمار الفرنسي بصورة خاصة ، ذلك الاستعمار الذي أراد أن يتخذ من منطقة غرب أفريقيا مجالاً حيوياً لتكوين إمبراطورية استعمارية ، تحت ذريعة تطوير الشعوب وتحضرها بهدف مسخ الهوية الإسلامية لشعوب المنطقة ، وتغيير المعتقد الديني إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، أو العمل على تنصير الوثنيين في المنطقة قبل أن ينعموا باعتناق الإسلام واتخاذه دينا لهم .

وبطبيعة الحال فقد تصدى شيوخ الصوفية لتلك الهجمة الاستعمارية محرضين أتباعهم على مقاومة الاستعمار ، وبخاصة أن بعض تلك الزعامات الصوفية قد

الديباج) إشراف وتقديم، عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس1989،ص 576 ـ 579 .

(1) القادرية: نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني(471 ـ 561هـ / 1077 ـ 1116م) وهو عبد القادر بن موسى ابن عبد الله الجيلاني، ويكنى بأبي صالح، وقد وُلد في مدينة جيلان (في طبرستان) ثم سكن بغداد عام 488هـ / 1094م ، وتتلمذ بها على كبار الشيوخ، واتصل بعلماء الفقه والتصوف — آنذاك — وقد اشتهر أمره وصار من علماء بغداد الشهيرين فضلا عن شهرته بورعه وتقواه، وقد توفي ببغداد عام 561هـ / 1116م . وقد انتشرت القادرية في بعض بقاع العالم الإسلامي ومنها بعض مناطق غرب أفريقيا .

(2) التيجانية: نسبة إلى الشيخ أبي العباس أحمد محمد المختار التيجاني(1737 ـ 1815م) أحد أهالي قرية عين ماضي ببلاد الجزائر وقد تلقى علومه ببلده الجزائر ثم انتقل إلى فاس عام 1757م . وزار كلاً من مكة والمدينة والقاهرة ، وقد انتشرت التيجانية في غرب أفريقيا، وتميزت بتزمتها الشديد ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى، ويرجع انتشار هذه الطريقة إلى الشيخ عمر بن سعيد الفوتي التكروري الذي أصبح من أتباعها انظر: حسن ، إبراهيم حسن، الإسلام في القارة الأفريقية ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ط 2 ، 1963 ، ص111 .

تحولت من مجرد زعامات دينية إلى تقلد مناصب سياسية ، وتكوين دويلات ــ داخل الدول التي هم رعاياها ــ وبالتدريج وصل الأمر إلى تكوين بعض زعامات الطرق الصوفية دولاً دينية كاملة ، ولعل أهم هؤلاء الرجال الشيخ عثمان دان فودي في شمال نيجيريا ، والذي تحول من رجل صوفي يعمل على نشر الإسلام في إمارات الهوسا إلى رجل سياسي عسكري ، حارب الحكام الوثنيين وكوّن إمبراطورية إسلامية استمرت من (1814 ـ 1903م) .

وعلى امتداد المسافة التي تشمل حاليا كلاً من السنغال ومالي وغينيا ، ظهر الشيخ عمر الفوتي مؤسس دولة التوكرلور الإسلامية ، ودافع ببسالة ضد الاستعمار الفرنسي حتى سقط شهيداً عام (1864م) والذي سيكون أنموذجاً لهذه الورقة كأحد شيوخ الصوفية الذين واجهوا الاستعمار الفرنسي ، وحاربوا الوثنيين في وقت واحد . كما أن هناك رجالاً آخرين ممن أقاموا الدول كالإمام عبد القادر كان (مؤسس الدولة الإمامية) ، والشيخ أحمد لوبو ـ في ماسينا ـ والإمام ساموري ثوري في كل من مالي وساحل العاج وغينيا .

ولعل تصدى هؤلاء القادة الصوفيين يتبعهم عدد كبير من المريدين يرجع إلى أسباب يمكن أن يكون أهمها ، إن الجهاد في الفكر الصوفي عموماً يعني كل نشاط فيه جهد ومشقة ، يهدف إلى إصلاح الواقع .

وبطبيعة الحال فإن ألوان الجهاد عند الصوفية هي :

أ ـ جهاد النفس ، ومخالفة هواها ووساوسها ، بالابتعاد عن مباهج الدنيا ومغرياتها ، وهذا اللون من الجهاد حملته إلينا أقوال قدماء المتصوفة عن كتب أرخت لحياتهم [1] ولعلهم استندوا في ذلك إلى ما روي عن الرسول ﷺ قوله عند رجوعه من إحدى غزواته ؛ « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . ويعني جهاد النفس .

ب ـ الجهاد الحربي ، وهو وثيق الصلة بجهاد النفس الذي يعمل على تهذيب نفس المسلم وإعداده إعداداً ، ينعكس على شخصيته في المواقف الصعبة شجاعة وإقداماً . وقد حفلت كتب التاريخ بالبطولات التي حققها كثير من الزعماء الصوفية والتضحيات التي بذلوها في ساحات القتال في مواجهة الأعداء ، يتقدمون صفوف

(1) ابن الجوزي، صفة الصفوة ، ج1 ، ص108 ، 212 .

الجيوش ، فهذا أبو الحسن الشاذلي يضرب المثل الأعلى في البطولة في معركة المنصورة عام **648هـ** (1) .

ولأهمية الجهاد عند المتصوفة فإن نسيان الرماية بعد التدرب عليها يعتبر كبيرة من الكبائر ، وذلك في قول محيي الدين بن عربي : « واجهد أن ترمي بسهم في سبيل الله ، وإن تعلمت الرمي فاحذر أن تنساه ، فإن نسيان الرمي بعد العلم به من الكبائر عند الله » (2)

إن التوجهات الصوفية ودعوتها للجهاد ليس بجديدة عن العالم الإسلامي ، إذ أنها لم تغب يوماً ، منذ أعلن رسول الإسلام (محمد ﷺ) دعوته ضد كل العقائد الفاسدة ، وضد كل تسلط وظلم يقع من القوي على الضعيف ، أو من الغني على الفقير أفراداً كانوا أو جماعات شعوباً أو دولاً . وهذه الظاهرة الجهادية شهدتها منطقة غرب أفريقيا بصورة جلية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة / الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ، ضد اجتياح استعماري وتنصيري لمنطقة غرب أفريقيا . وهنا يقودونا الحديث إلى التعريف بالشيخ عمر الفوتي الذي اعتبرناه أنموذجا لمواجهة حركات التنصير والاستعمار الفرنسي بمنطقة غرب أفريقيا .

الشيخ عمر الفوتي

أولاً : نشأته وتكوينه

وُلد الشيخ عمر الفوتي في فوتاتورو إحدى المناطق في السنغال ، وهي منطقة اشتهرت بظهور عدد من العلماء والتقاة الورعين ، فضلا عن أنها منطقة قامت فيها الدولة الإمامية الإسلامية (3) .

وقد تلقى الشيخ عمر الفوتي تعليمه في عدد من مراكز العلم التي تنقل بينها ،

(1) علي سالم، أبو الحسن الشاذلي ، ج2 ، ص14 ـ 17 .

(2) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية ، ج4 ، دار صادر، بيروت : د . ت ، ص457، 487 .

(3) أقام هذه الدولة الإمام ناصر الدين، ولكنه لم يُعمر طويلاً حيث قتل عام 1085هـ / 1674م . للمزيد من المعلومات حوّل هذه الدولة انظر (محمد بن سيدي محمد أحمد، الإصلاح الإسلامي في غرب أفريقيا) الحركة الإمامية في فوتاتورو، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة معهد البحوث والدراسات العربية 2001م، ص24 ـ 35، وكذلك، محيي الدين صابر، العرب وأفريقيا، العلاقات الثقافية، بيروت، المكتبة العصرية، 1987، ص13 وما بعدها .

وأخذ عن شيوخها العلوم الإسلامية والعربية والصوفية ، فتكوَّن بذلك علمياً ونفسياً أهله للقيام بدعوة الوثنيين الذين لم يسلموا بعد من جهة ، ومقاومة الوجود الاستعماري والتنصير من جهة أخرى .

لقد تزامن ظهور عمر الفوتي مع قيام حركة عثمان بن فودي في شمال نيجيريا ، التي وصلت أصداؤها إلى مناطق غرب أفريقيا ، فاتصل الفوتي بهذه الدولة أيام خليفة المؤسس (أخيه) محمد بلّو الذي منح الفوتي فرصة الاطلاع على نظام الحكم القائم في شمال نيجيريا ، وشارك أيضاً في الحروب التي خاضها محمد بلّو ضد الوثنيين ، فكانت تلك فرصة ومرحلة إعداد لعمر الفوتي للدور الذي سيطلع به فيما بعد .

إن ظهور عمر الفوتي قد واكب بداية اليقظة الإسلامية والصيحات الإصلاحية الثورية في المشرق الذي كان الشيخ عمر الفوتي على اتصال بها وبرجال الفكر فيها ، بدءاً من ليبيا ومصر وشبه الجزيرة العربية ، هذه الظروف كلها تركت في شخصية الفوتي آثاراً طيبة للقيام بواجب الجهاد والدعوة له ضد الوثنيين والمستعمرين [1] .

بدايات حياته السياسية

ظل عمر سعيد الفوتي في مدينة كانكان [2] بين عامي (**1838 ـ 1839**م) محاولاً إيجاد مكان يصلح أن يكون مركزاً أو مستقرا دائماً ، وقاعدة ينطلق منها لنشر مبادئه التيجانية ، وذلك كأساس لبدء الجهاد .

ولقد كان من الطبيعي جداً أن تترك حياة الفوتي وثقافته الإسلامية أثراً في توجهه السياسي الذي بدأه عام **1840**م ، وانطلاقا من مدينة دياجونكو Diagonko [3] التي وقع عليها اختياره لتكون منطلقاً لكفاحه ، وفي هذه المدينة أيضاً قام خلال الأعوام **1840 ـ 1844**م ، بتأليف (كتاب الرماح) [4] وهو كتاب يتناول توجهه الصوفي على الطريقة

(1) عبد الله عبد الرازق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، عالم المعرفة العدد139، الكويت،(ذو القعدة 1409هـ / يوليو 1998م، ص81) .

(2) مدينة توجد حالياً في جمهورية غينيا كوناكري .

(3) دياجونكو DIAGONKOقرية في السنغال حاليا .

(4) عمر سعيد بن الفوتي، رماح حزب الرحيم في نحور حزب الشيطان الرجيم، مطبوع على حاشية كتاب، علي حرازم جواهر المعاني .

التيجانية . وفي سنة (**1849**م) انتقـل إلى مدينـة دينغـراي Dingmiray [1] الـتي صـارت المقر السياسي والعسكري والروحي له .

رأى عمر الفـوتي أن طموحاتـه في نـشر الإسـلام ومقاومـة الاسـتعمار الفرنـسي وحركة التنصير التي صاحبته لا تتحقق ، إلا إذا أقام دولة تكون نموذجا للإسلام وتطبيق الشريعة .

وبطبيعة الحال فإن رسالة الفوتي وما تدعو إليـه مـن تطبيـق للـشريعة الإسـلامية والعودة بالإسلام إلى بساطته الأولى ، هي الأساس لوضع حدِّ للوثنيـة في منطقـة غـرب أفريقيا ويبدو أن الفـوتي قـد أيقـن أن هـذا هـو الطريـق الوحيـد لتحقيـق النـصر علـى الأوربيين ، عندما صرح بذلك بقوله : « . . . قتال الكفار أمر لا أنفك عنه حتـى يمحـق الله دولة الكفر بدولة الإسلام . . . والمسئولية تقـع علينـا نحـن العلمـاء لنـشر ديـن الله ، وإعادة هيبة الإسلام ـ أولا ـ في فوتا جالون وسيغو وينورو وكارتا ، لنشوء الكفر وسـط بلاد المسلمين هناك . . . حتى يـتم لنـا ذلـك فـإن أمـر النـصارى سـيكون هينـاً . . . إن الإسلام الذي نأمر به لا يأمر بمصاحبة الكفار ، ومن صاحب قوماً فهو منهم» [2] .

ولقد كان من الطبيعي جـداً أن الدسـتور أو المبـادئ الـتي اختطهـا عمـر الفـوتي للدولة الإسلامية تؤكد بوضوح أنه لا يطمح في السلطة والزعامة والجـاه ، وإنمـا كانـت غايته نشر الإسلام وإعلاء كلمته في كل منطقة غرب أفريقيا .

وإذا ما انتقلنا إلى قضية المواجهة بين عمر الفوتي وبين الاستعمار الفرنسي ، فإنها تكمن في أمرين :

الأول : إن الشيخ عمر الفوتي انشغل في حروب شبه دائمة ضد الوثنيين .

ثانياً : مجيء الفرنسيين في حملاتهم الاستعمارية إلى غرب أفريقيا كانت مزامنـة لتلك الحروب التي كان يخوضها ضد الوثنيين ، والتي رأى أنها ضـرورية قبـل مواجهـة الفرنسيين .

وبطبيعة الحال فإن هذه الظروف الـتي مـرَّ بهـا الـشيخ عمـر الفـوتي وأتباعـه قـد أضعفت موقفه في مواجهة الاستعمار الفرنسي الذي كان يفوقه عُدة وعتاداً .

---

(1) مدينة دينغرايDINGUIROY توجد حاليا في غينيا كوناكري .

(2) مصطفى جوب، الإسلام في السينغال بين الأطروحة والواقع ص332 .

بداية صدام الفوتي بالفرنسيين

عندما كان الشيخ عمر الفوتي يحارب الوثنيين ، كان الفرنسيون يتوسعون في غرب بلاده وهو يعلم أن هؤلاء الغزاة الأوربيين لم يأتوا من أجل مساعدته في بناء دولته ، ولكنهم جاءوا لاحتلالها مستعبدين لشعبها ، فرأى أنه من الحكمة أن يهادن الفرنسيين في هذه المرحلة ويظهر لهم النوايا الحسنة ريثما يخلص من قتال الوثنيين (1) .

وبالنسبة لآلية الاتفاق بين الشيخ عمر الفوتي وبين الفرنسيين ، فإنها تقوم على أمرين :

- يقوم الفرنسيون بتزويد الشيخ بالسلاح .
- حصول الفرنسيين على إذن بحرية التجارة في البلاد وحق التنقل .

وما يؤكد أن الأمرين جاءا على لسان الشيخ عمر الفوتي ما صرح به عند لقائه بالفرنسيين قوله : « إنه يرغب في السلام ويكره الظُلم ، وإن على الفرنسيين دفع الجزية إليه حتى يمكنهم من التجارة في أمان وإنه بعد أن يصبح إماماً لفوتاتورو ، فسوف ينظم الدولة ، وسوف تسود علاقة الود بالفرنسيين » (2) .

وبطبيعة الحال فإن تصريحات الشيخ عمر الفوتي إنما جاءت لجس نبض الفرنسيين وقطع الحجج عليهم ، والوقوف على حقيقتهم ، ولذلك عندما قوبل اقتراحه بالرفض ، كان من الطبيعي جداً أن يغير الفوتي استراتيجيته وموقفه من الفرنسيين ، وأن يعلن الحرب عليهم بالرغم من إدراكه أن الفرنسيين أكثر منه عدة وعتاداً ، وأن المواجهة العسكرية ضدهم ليست في صالحه ، ومن أجل ذلك اتبع استراتيجية أساسها :

1. المواجهة العسكرية

ففي الشهور الأولى من عام **1857**م ، هاجم عمر الفوتي بقواته القلعة الفرنسية في مادينا ، واحتل منطقة تومورو (TOMORO) دون قتال .

وفي **14** أبريل من نفس العام هاجم سابوسيرى (SABUSIRE) وفي

---

(1) عبد الله عبد الرازق إبراهيم، المرجع السابق،ص89 .

(2) نفسه .

العشرين من الشهر نفسه (أبريل) حاصر مادينا بجيش يبلغ قوامه **15.000** خمسة عشر ألفاً وفي عام **1859**م ، عاود الفوتي هجومه على القلاع الفرنسية في ما تـام MATAM التي كانت تحت قيادة الفرنسي (بول هول) الذي انتصر على قوات الشيخ عمـر وكبـدها خسائر كبيرة بلغت حسب بعض المؤرخين ثمانية آلاف قتيل [(1)] .

ولقد كان من الطبيعي جداً أن ينسحب الشيخ عمر الفوتي بقواته من الصوفية إلى جيومو gmemou الواقعة على بعد **40** كيلو متر من باكل [(2)] .

2. المواجهة الاقتصادية

اعتمد الشيخ عمر الفوتي في مواجهة الفرنسيين حرباً اقتصادية ، تقوم علـى قطـع نقاط اتصال العدو بالمدن التجارية التي يحصل منها علـى المنتوجـات الأفريقيـة ، كمـا تسهل له الاتصال بزعماء القبائل لعقد الاتفاقيـات معهـم لتعزيـز وجـوده في المنطقـة ، وتفويت الفرصة على العدو ومخططاته .

وقـد أدرك الـشيخ عمـر الفـوتي أن نجاحـه في الـسيطرة علـى نقـاط الاتـصال بين مراكز الفرنسيين خطوة أساسية للانتصار عليهم ، وإفشال مخططاتهم ، ولقد كان من الطبيعي جداً أن يبدأ الشيخ عمر الفوتي بقطع المرور في حوض نهر الـسنغال الأعلـى ، فضلا عن مصادرته للبضائع الفرنسية وقطع خطوطهم التجارية .

وبطبيعة الحال فإن الحاكم الفرنسي فيد fead قرر الهجوم على الشيخ الفـوتي في حصن جيومـو ، وعهـد بـالأمر إلى قائـده فـارون faron الـذي اسـتطاع في **25** أكتـوبر الاستيلاء على هذا الحصن الـذي كـان الـشيخ الفـوتي قـد غـادره قبـل وصـول الجـيش الفرنسي .

3. المواجهة الاعلامية الدعائية

قام الشيخ عمر الفوتي في هـذه المواجهـة بتهيئـة الـرأي العـام ضـد الاسـتعمار ، مبيناً مخاطره وأهدافه الخفية التي يسعى من خلالها إلى ابتلاع بلادهـم والـسيطرة علـى

(1) موريبا بمبا، الصوفية في غرب أفريقيا ودورها في مقاومته التنصير والاستعمار في القرنين(12 ـ 13هـ / 18 ـ 19ف) رسالة ماجستير غير منشورة، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1430 ـ 2000ف،ص342 .

(2) مدينة ومركز علمي في فوتاتورو، التي تضم السنغال حالياً .

جميع مواردها ، وذلك بغية تشوير هؤلاء السكان ، الذين كانوا جنوداً في جيش الاحتلال ، ويطلقون عليهم الرماة السنغاليين (les tirailleur sengals) .

وبطبيعة الحال فإن المواجهة الإعلامية كان لها استجابة في نفوس الأهالي ، حيث انضم إلى جيش عمر الفوتي أعداد كبيرة ، وصل خلالها تعداد جيشه إلى **12.000** ألف رجل ، بعد الاستيلاء وعلى مدينة (تامبا) TAMBA . ثم زاد العدد إلى **15.000** ألف أثناء حصار مادينا عام **1857**م . لكنه انخفض إلى **7.000** ألاف رجل ليرتفع مرة أخرى **30.000** رجل عام **1861**م . وهذه الأرقام تعد مؤشراً على مدى نجاح المواجهة الإعلامية ووعي الشعب السنغالي بالأخطار التي تتهدده من جانب الغزاة المستعمرين وحقيقة نواياهم .

ومثلما أشرنا سابقاً فإن الشيخ عمر الفوتي قد استخدم في مواجهة الفرنسيين استراتيجية تقوم على التنوع بحسب مقتضيات المواجهة ، فتارة يحارب الفرنسيين وأخرى يلجأ إلى التفاوض معهم لإدراكه بأن القوتين غير متكافئتين عسكرياً ، وهو يعلم أيضاً أن أطماع الفرنسيين لا حدود لها ، ولذا قرر التحرك إلى الشرق ، باتجاه النيجر ، لعله يستطيع أن يقيم دولته هناك ، وأن يبحث عن تحالفات جديدة بين رجال القبائل من أجل توحيد صفوف المجاهدين ، لمواجهة عدو مشترك جاء لغصب بلادهم جميعاً (1) .

على أي حال ، لقد حاول الشيخ عمر الفوتي ما استطاع ، لتوحيد جهود زعماء القبائل لمواجهة الاستعمار الفرنسي ، ولكنه كان كثيراً ما يجانبه التوفيق في ذلك ، لخوف بعض الزعامات ومشائخ القبيلة على فقدان مراكزهم ، عندما يتحالفون معه ولا يستبعد أن الفرنسيين كان لهم يد في بذر بذور الفرقة بين الزعامات ورؤساء القبائل ، حتى لا تجتمع كلمتهم على مقاومة الاستعمار صفاً واحداً فقد طلب الشيخ الفوتي التحالف مع الوثنيين في مملكة سيغو وذلك عام **1856**م ، ولكنه فشل . واتجه أيضاً إلى الزعماء المسلمين في ماسينا وتمبكت ، ولكن الخلافات بين الشيخ وهذه الشخصيات قد حالت دون تحقيق هذا التحالف ، فضلاً عن تخوف هذه الزعامات على ممالكهم .

وعوضاً عن أن تتحالف تلك القوى التي دعاها الشيخ عمر الفوتي ، وتتماسك

---

(1) عبد الله عبد الرازق، المرجع السابق، ص96 .

francais) ser . i . of 1912 . 3vol . H . P . 312 ـ Dela Fossc, M . Les Peuples Haut Senegal . Niger(Soudan

ضد العدو الفرنسي المشترك ، فإنها تحالفت ضد بعضها حيناً ، ومع الوثنيين والفرنسيين أحياناً أخرى .

وبقدر تعلق الأمر بتداعيات المحاولات التي بـذلها الـشيخ عمـر الفـوتي لتوحيـد القوى ، وجمع الصفوف لمواجهة الفرنسيين ، فإن إدراكه بعدم فهم خططه ، وضيق الأمل في إنقاذ ما تبقى من الأراضي عندئذ ، وفي محاولـة أخـيرة ويائـسة أعلـن الـشيخ عمـر الفوتي الحرب على الوثنيين ومن حالفهم في وقت واحد ، وتمكـن مـن احـتلال سـيغو عاصمة ماسينا ، واستشهد الشيخ في يوم الجمعة أول شهر رمضان **1280**هـ / **12** فبراير **1864** (1) .

وبطبيعـة الحـال فـإن استـشهاد الـشيخ عمـر الفـوتي ، وهـو يحـارب الفرنـسيين والوثنيين لانقاذ بلاده من المستعمرين الفرنسيين ، لم يضع حداً لجهاده وصمود ، لا بـل إنه أجج نار العداء ومواصلة الحرب ضد الفرنسيين ، في نفوس أتباعه الذين رفعـوا رايـة التحدي ، والنضال بعده رحمه الله تعالى (2) .

الخاتمة

لم تحقق حركة الجهاد ضد الفرنسيين بقيادة الشيخ الصوفي عمر الفـوتي نجاحـاً عسكريا حاسما ، بسبب أن المنطقة كانت تموج بالصراعات الداخليـة ، وأصـبح الـشيخ طرفاً فيها ، مما أدى إلى تشتت جهوده في أكثر من جبهة ، فضلا عن تحبيذ الشيخ عمر الفوتي للقوة دون الاحتكام إلى السياسة ، وبخاصة في التعامل مع القـوى الإسـلامية في المنطقـة ، إذ عنـدما تـوترت العلاقـات بينـه وبـين شـيخه أحمـدو شـجو الثالـث ، حاكم ماسينا، طلب الأخير العودة إلى ضبط النفس حقنا لدماء المسلمين ، وحاول شرح الأسـباب الـتي دفعتـه للوقـوف مـع البمبـارا ، لكـن الـشيخ الفـوتي عمـل علـى إسـقاط دولة ماسينا الإسلامية ، وربما كان يعتقد أن توحيد المنطقة تحـت حكمـه هـو الوسـيلة الوحيدة لمواجهة الفرنسيين ، لكن الجهود المبذولـة في هـذا الاتجـاه قـد كلفـت الـشيخ الكثير من الوقت والجهد ، كما أضعفت قواتـه الـتي كـان يجـب أن يـدخرها لمواجهـة الفرنسيين .

وعلى أي حال فإن خسارة الشيخ الفوتي أمام الفرنـسيين كانـت عونـاً لمـن جـاء

(1) حول وفاة الشيخ عمر الفوتي انظر: عبد الله عبد الرازق إبراهيم، المرجع السابق ، ص99 .

(2) موريبا بامبا، المرجع السابق، ص345، حيث يناقش الآراء التي تعرضت لوفاة الشيخ عمر الفوتي .

بعده، لمواصلة المواجهة مع القوات الفرنسية الغازية لبلاده ، وفي ذات الوقت فإن مواجهة الشيخ الفوتي للفرنسيين قد حققت نجاحات كثيرة لعل أهمها :

1. نجاحه في القضاء على تسلط الحكام المحليين ، وإقامة نظام إسلامي ، يختلف عن الأنظمة الحاكمة السابقة في المنطقة .
2. إسهامه في تثبيت عقائد الإسلام الصحيح بين أتباعه ومريديه ، بمحاربته للبدع والشعوذة والعادات الضارة التي كانت متفشية في مجتمعه ، والمجتمعات الوثنية التي ساعدها على الأخذ بمبادئ الإسلام واعتناقه .
3. عمله على نشر الثقافة الإسلامية ، وبخاصة أنه كان أحد روادها بما ألفه من كتب[1] وأشعار في الزهد والحكمة الإسلامية ، فأصبح القرن التاسع عشر للميلاد من أفضل عهود إزدهار الثقافة العربية الإسلامية في منطقة السودان الغربي ، فضلا عن أنه نبه شعوب هذه المنطقة إلى مخاطر الاستعمار الفرنسي والمنصرين الذين اصطحبهم معه ، وحفز شعبه وأتباعه على الوقوف ضدهم .

إن أنموذج الشيخ الصوفي عمر الفوتي ومن جاء بعده وسار على خطاه ، هو الذي جعل انتشار الإسلام في منطقة غرب أفريقيا يظهر واضحا وجليا ، فضلا عن أن أغلب المظاهر الدينية في منطقة السودان الغربي أصبحت مطبوعة بطابع التصوف ، ويستطيع المرء ملاحظة ذلك إذا زار المنطقة ومن ثم يمكن التوصية بالآتي :

إعادة الحياة إلى التصوف من جديد ليكون له الصدارة في ميادين الحياة الفكرية والاجتماعية ، بعد تحديثه وإخراجه من القوقعة التي عاشها بين جدران المساجد والتزين بالسبحات والأزياء الخاصة ، مع العمل على تنقية هذه الفرق مما شابها وخالطها من البدع والعادات المخالفة لروح الإسلام ومبادئه ، وتجديد بناء هذه الطرق في ضوء الكتاب والسّنة لقطع الطريق أمام حركات التنصير الناشطة في أفريقيا عموماً وغرب أفريقيا على وجه الخصوص . مع تجاوز الخلافات بين الطرق الصوفية المنتشرة في أفريقيا التيجانية ، والقادرية ، والعروسية ، وما نشأ عنها من طرق جديدة ذات طابع

(1) ألف الشيخ عمر الفوتي عدداً من الكتب في التصوف الإسلامي منها كتابه (رماح حزب الرحيم في نحور حزب الشيطان الرجيم) وكتابه الغافلين الذي ألفه لينصح به ملك(برنو) وسكان بلاد الهوسا ويدعوهم إلى الاتحاد وعدم الفرقة، انظر(إبراهيم صالح يونس، تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم ـ برنو) ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1979م، ص114 .

أفريقي من خلال تنسيق جهودها في حقل الدعوة ، ومحاولة توضيح بعض الآراء الصوفية مثار الاختلاف والتنافر ، مع العمل على إحياء ذكرى زعماء الصوفية من أمثال الشيخ عمر الفوتي والشيخ عثمان بن فودي وأخيه محمد بلُّو وغيرهم ، ممن ساهموا في محاربة الوثنية في أفريقيا وقاوموا الوجود الاستعماري الفرنسي وحركات التنصير ، وذلك بهدف تخريج كوادر قادرة على الحركة ، والمرونة في مجال الدعوة لخير الإنسان، وهذا النوع من الدعاة هو القادر على دفع دولاب العمل الدعوي إلى الأمام ، لأنه يجمع بين الأصالة والحداثة إذ إن الاهتمام بأحد هذين العنصرين ، وإغفال الآخر يؤثر سلبا على سير الدعوة وبرامجها .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

1. ابن عربي ، محيي الدين ، الفتوحات المكية ، دار صادر ، بيروت ، الجزء الرابع (د . ت) .
2. التنبكي ، أحمد بابا ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، إشراف وتقديم ، عبد الحميد عبد الله الهرامة ، كلية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، 1989 .
3. الفوتي ، عمر بن سعيد ، رماح حزب الرحيم في نحور حزب شيطان الرجيم ، مطبوع على حاشية كتاب ، علي حرازم ، جواهر المعاني (د . م) (د . ت) .

ثانيا : المراجع

1. ابن أحمد ، محمد بن سيدي محمد ، الإصلاح الإسلامي في غرب أفريقيا (الحركة الإمامية في فوتاتورو) رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 2001 .
2. إبراهيم ، عبد الله عبد الرازق ، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا ، عالم المعرفة العدد 139 ، الكويت (ذو القعدة 1409هـ / يوليو 1998م) .
3. بامبا ، موريبا ، الصوفية في غرب أفريقيا ودورها في مقاومة التنصير الاستعمار في القرنين (12 ـ 13 هـ / 18 ـ 19م) رسالة ماجستير غير منشورة ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس 1430هـ ـ 2000ف .
4. صابر ، محيي الدين ، العرب وأفريقيا ، العلاقات الثقافية ، المكتبة العصرية ، بيروت 1987 .
5. De La Fosse . M . Le Pays . Les Peuples . Haut Senegal Niger . Soudan Francais . Vol3 . 1912 .